الشك واليقين عند نازك الملائكة المقدس الديني انموذجا

Doubt and Certainty in the Work of Nazik Almalayika. The Religious Sanctuary ‘Al-Muqadas Al-Diyni’ as a Model

م. د. بشرى حنون محسن الساعدي

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الاسلامية/ قسم اللغة العربية

asst. prof. Dr Bushra Hanon Mohsen Al-Saadi

University of Karbala / College of Islamic Sciences/ Department of Arabic Language

كلمات مفتاحية : الشك، اليقين، نازك الملائكة، المقدس الديني.

Key words: Doubt، Certainty، Nazik Almalayika، religious sanctuary

ملخص البحث

أثرت النصوص الدينية في جوانب الحياة تأثيرا كبيرا؛ فكان من الطبيعي أن يشمل هذا التأثير الأدب أيضا، فلا يكاد يخلو ديوان من الشعر الحديث من الإشارات أو الرموز الدينية المقتبسة والتي يتم توظيفها ليبث بعضا من المضامين المعاصرة يتناولها الشاعر في بعض أشعاره. وعُدت نازك الملائكة واحدة من شعراء جيلها الرواد الذين استعملوا ذلك بوعي تام وأجادوا فيها إجادة واضحة، لما تمتلكه هذه الإشارات من شحنات رمزية من جهة، ولأنها تجسد جانبا من جوانب الثقافة الجمعية من جهة أخرى، كما أن الحديث عن الرموز الدينية في قصائدها يقودنا إلى الحديث عن الموارد والمنابع التي استلهمت منها الشاعرة تلك الرموز، بغض النظر عن مصدرها على الرغم من إن معظمها يعود إلى الدين الإسلامي والقصص القرآني. ولا نغالي إذا ما قلنا إن الشاعرة من أكثر الشعراء الذين تمركزوا حول حياتِهم الباطنية؛ بما تمتلك من حساسية عالية وما عرف عنها من حس ورهافة، الأمر الذي دفعها إلى التعويض عن ذلك بتشكيل حساسية الحلم الشعري الخاص بها، المعبر عن حساسية الكيان الأنثوي المنتمي الى عالم مضطرب، فسعت إلى تشكيل حياة باطنية داخل كيانها؛ لتكون ملاذا لها، تحتمي خلف جدرانها، أملا في تمكنها من التخفي عما يحيطها، لذلك نراها تنتخب أقنعتها ورموزها لتعرية زيف عصرها، عبر تجسيد الشخصيات الموجودة في الموروث الحضاري، فاستطاعت بذلك أن تجسد رموزها بما يتلاءم مع روح العصر، ومتطلبات الحياة،والهموم الإنسانية والقومية، ونرى أن مواقفها في قصائدها تتغير فتارة نجدها تلجأ الى الاستعمال العابر للرموز الدينية من غير مراعاة لقدسية تلك الرموز أو الشخوص الدينية، وتارة تتحول إلى الاستنجاد طالبة العفو والتوبة، فمواقفها متنقلة من الشك إلى اليقين.

Abstract

Religious texts have had a great impact on aspects of life. It was natural for this influence to include literature as well. Hardly a diwan of modern poetry is devoid of quoted religious references or symbols، through which the poet transmits some of the contemporary contents dealt with in some of his/her poems. Nazik Almalayika was considered one of the pioneer poets of her generation who used religious signs and symbols with full awareness and mastered them clearly. This is because، on the one hand، these signs possess symbolic charges and، on the other hand، they embody an aspect of collective culture. Also، discussing religious symbols in her poems leads us to talk about the resources and sources from which the poetess inspired these symbols. Most of them go back to the Islamic religion and Quranic stories. It is not exaggerated when saying that Nazik Almalayika was one of the most poets who focused on their inner life، with the high sensitivity and tenderness she was known for. It prompted her to compensate for this by forming the sensitivity of her own poetic dream، expressing the sensitivity of the female entity، and belonging to a turbulent world. Thus، she sought to shape a mystical life within her being to be a sanctuary for her، in the hope of being able to hide behind its walls from what surrounds her. Therefore، we see her choosing her masks and symbols to expose the falsehood of her era by embodying the characters present in the cultural heritage، whether those characters are negative or positive. She had a complete belief that history repeats itself and that what is happening is a representation of past events. Hence، she could embody her symbols in line with the spirit of the age

asking for forgiveness and repentance. Thus، her standpoints fluctuated from doubt to certainty. A certainty characterized by the depth that a person can only reach after research and contemplation.

المقدمة

يعد الدين من أكثر الموضوعات التي اختلفت الآراء في تحديده وتعريفه فصار من الصعوبة البالغة وضع إطار متفق عليه لصورة تمثل الدين[١]. لذا نجد أن مفهوم الدين يتغير باختلاف العصور[٢]. وقد عده أحد الباحثين أهم نظام اجتماعي، ومن أكثرها تجذرا في بواطن النفس الإنسانية، ومن أكبرها شأنا في مقدار ما يؤديه من وظائف في حياة الفرد والمجتمع، فهو من يوجه أفراد المجتمع إلى التطور مما يدفعهم إلى تكامل أكثر في الأهداف والمقاصد [٣]. فهو مفهوم لم تخل منه أمة من الأمم، ولا شعب من الشعوب ولا حضارة من الحضارات قديما أو حديثا، فالأديان في حقيقتها امتداد للتفسير الابتدائي، الذي كان يفهم كل شيء بالسحر والخرافة[٤]، كما أن الأديان كلها وضعت غاية لوجود الإنسان، وبينت الهدف الذي يسعى لبلوغه بالرغم من ذلك كله نرى بعضهم قد وقف ضد الدين أو على أقل تقدير ضد مفهوم معين للدين. وهذا ما سيتطرق اليه البحث عبر تناول بعض الإشارات الدينية والرموز المقدسة وبيان مدى توظيفها في قصائد نازك الملائكة، وقد قسم البحث على تمهيد ومبحثين تناول التمهيد الحديث عن توظيف التراث في الشعر الحديث والمرجعية الدينية في أشعار نازك وجاء المبحث الأول بعنوان مرحلة الشك ووقف عند الافكار التي بثتها نازك وصدرت لها في قصائدها.وتناول المبحث الثاني مرحلة اليقين والتحول الذي أصاب نازك على مستوى الافكار والانفعالات والاتجاه صوب المقدس الديني إيمانا منها به، ثم انتهى البحث الى خاتمة أجملنا فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث ثم قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد : المرجعية الدينية في اشعار نازك الملائكة

كثيرا ما يلجأ الشاعر الحداثوي إلى المرجعية الدينية في سياق تجربته الشعرية وبمقتضاها يبحث عن ((مدى لصوته وأصداء لتجربته، ويفتش عن وجوه تعكس تجربته أو تؤكدها أو تضيف إليها،وهنا يكون اتجاه الشاعر إلى الأصوات الشعرية مقصوداً، ويكون انتقاء الوجوه التراثية عقلياً، ومشروطاً بالتجاوب الإنساني بالمعنى الرحب للكلمة))[٥]، لذلك نلاحظ أن الأدب الحديث قد تأثر بالنصوص الدينية، وهو تأثر طبيعي؛ لأن هذه النصوص أثرت على مجمل جوانب الحياة، والأدب بصورة عامة هو واحد من هذه الجوانب.

ونجد أن هناك صلة وطيدة بين النص المقدس والإيديولوجية، وبين النص المقدس والتقاليد والأعراف السائدة في زمن من الأزمان، فالذي يُعدُّ مقدسا في زمن ما قد لا يُعدُّ كذلك في زمن آخر.

وتُعدُّ المضامين التراثية الممتزجة بالأفكار الدينية المستمدة من القرآن الكريم واحدة من الأمور التي أفاد منها رواد الشعر الحر، وتأثروا بها تأثراً كبيراً، ويتضح ذلك بالأفكار الدينية التي ضمنوها في أشعارهم وفي الصور القرآنية التي كثُرت في دواوينهم الشعرية. كما أن القصص القرآني كان مظهراً آخر من مظاهر التأثر بالنص القرآني[٦]، وقد جمع هؤلاء الرواد في قصائدهم بين الدين الاسلامي وبين المضامين الدينية الأخرى بنحو من التفصيل[٧]، فجاءت جل ابداعاتهم الشعرية من الموروث الديني الذي بنوا عليه تجاربهم الشعرية، فأصبحت الكتب السماوية المقدسة الثلاثة : القرآن الكريم والتوراة والانجيل روافد مهمة تصب في تجاربهم الشعرية، إذ استمدوا مما جاء فيها من آيات، وما ذُكر فيها

من شخصيات نبوية ودينية، ما مكّنهم من تفجير الطاقات الدلالية الكامنة في هذه الشخصيات لإنتاج الدلالات التي تستوعب ابعاد حاضرهم وتعالج قضاياه المصيرية. فأخذ الأدباء يستلهمون معانيهم من القرآن الكريم، مستعينين بما يمتلكون من طاقات ابداعية مكنتهم من وصل تجاربهم الشعرية بآيات القرآن الكريم وما تدعو إليه من قيم عليا، فأعادوا تشكيل معاني القرآن وأفكاره السامية وتوظيفها في قصائدهم الشعرية وحاولوا مزج نصوصه المقدسة بنصوص أخرى لاحقة؛ لخلق جو من التحاور بينه وبين النصوص الجديدة [٨].

إن لغة القرآن الكريم وما فيها من ألفاظ وصياغات عدّها الرواد أحدى روافد الحداثة في الشعر، تمكنوا بوساطتها من تحقيق التنوع المطلوب، فلا يمكن لأحد أن ينكر أثر النص المقدس في رفد ثقافة الشاعر، خاصة إذا ما علمنا أن ديانة أكثر الشعراء الرواد هي الاسلام، زد على ذلك أن الشاعر قد نشأ في بيئة تحتفي بالمقدس الديني بنحو خاص. وإن كان ذلك المقدس عند بعضهم ليس مقدسا، ولكنه تعامل معه بوصفه قضية إنسانية يمكنه أن يقف منها موقف القبول أو الرفض. فالشخصيات والأحداث التي تتمثل بها القيم الانسانية لم تعد مجرد أسماء ومسميات موجودة في ذمة التاريخ فحسب، بل باتت قيماً تؤثر في الحياة المعاصرة عبر الروح الثورية التي يستلهمها الشاعر من تلك الاسماء والمسميات، وما تجسده أو تعبر عنه من وحدة في الزمن والحضارة والتاريخ والمصير البشري [٩]. وتبعاً لما تقدم سنحاول في هذا البحث أن نتناول الرموز الإسلامية - شخصيات وأحداث - وتقصيها وتشخيص حضورها ومقدار فاعلية هذا الحضور في النص الشعري، وتتبع نماذج منها في شعر نازك الملائكة، والاقتراب من مستويات الدلالة المتعلقة بمفهوم المقدس الديني عندها، وما حصل من تغيرات في مفاهيمها عن المقدس الديني عبر السنين، فسياحة التفكر الحر في مختلف العوالم لابد أن تنتج شيئا على المستوى الثقافي ولنقل على مستوى الوصول إلى حقائق الأشياء، ولنقل إلى اليقين كما حصل مع نازك الملائكة.

المبحث الاول : مرحلة الشك

نلحظ أن ملامح الأسلوب الرمزي- توظيف النص المقدس- كانت قد ظهرت في ديوان نازك الثاني(شظايا ورماد) عندما قدمت الشاعرة مقدمة لديوانها قالت فيها:((إن النفس الإنسانية عموماً ليست واضحة، وإنما هي مغلفة بألف ستر))[١٠] وهي بهذا القول تؤكد أهمية التعبير الرمزي وتأصله في الذات الانسانية. ولهذا عملت الشاعرة على توظيف الأساطير في دواوينها الاولى، ثم نراها تعزف عن ذلك التوظيف في ديوانها (قرارة الموجة)؛ لأسباب مختلفة، يتعلق بعضها بنفسية الشاعرة، ويتعلق الآخر بأسلوب تفكيرها، ولكنها تحاول ان تعوض ذلك برموز دينية وتراثية تستمدها من التراث العربي أو من الفكر الإسلامي أو من الديانة المسيحية، وقد اشارت في مقدمة ديوانها إلى أنها قدمت مفتاح حياتها الشعرية الفلسفي للقارئ والناقد ((وإن لم أجد حتى الآن من استفاد من ذلك المفتاح وفتح به القفل المغلق الذي هو شعري))[١١]، وانشغلت الشاعرة بتصوير ذاتها، فقد كانت معروفة في((الدقّ الدائم على أوتار اليأس والميل إلى التشاؤم، وإهمال الوجود الخارجي والانطواء على الذات انطواءً قريب الشبه بالمرض، لا يعالج المشكلات بل يرفضها ويبتعد عنها))[١٢]، ولهذا نراها تهتم بمعالجة حالاتها الخاصة، مبادرة

الى الدعوة إلى معالجة حالات اللاشعور والذات الباطنية، بعد أن أهتم الشعر القديم بالوقوف على معالجة سلوك الانسان الخارجي، وبسبب غموض النفس البشرية؛ لذلك يكون التعبير عنها رمزيا [١٣] وهو ما أخذته نازك من أقطاب المدرسة الرومانسية الذين تأثرت بهم وسارت على خطاهم، فالخروج عن دائرة الرفض السلبي الذي انتهجته الحركة الرومانسية بفعل ضغط التسلط، ومظاهر الفقر والتخلف، ووفود الثقافة الغربية وتأثر المثقف العربي بها وانبهاره بتياراتها الثقافية والاجتماعية والسياسية، أدى إلى تنامي ذلك الرفض السلبي وتصاعده ووصوله الى حالة من التمرد الايجابي مرة والى التمرد السلبي مرة أخرى. فبات الليل انيسها، وأصبح الحزن نديمها والآلام أغانيها، وصارت حياة الأكواخ حلمها. فوجدت نفسها تعيش في عالم مقفر، تتراجع فيه المثل الروحية، وتفتقد أواصر المحبة الإنسانية، فبدأت رحلتها مع الاغتراب ومعاناتها منه.

ويمكننا القول بأن حالة الإلحاد والتشكك التي عاشتها نازك انحصرت ما بين (١٩٤٨ – ١٩٥٥)[١٤] وهذه المرحلة مثلت الذروة في أزمتها النفسية. أما شعور العبثية أو حالة اللاأدرية، فربما تعود اسبابها إلى ما عاشته من محن وآلام في حياتها الخاصة أو في شعورها الإنساني العام، فمعاناتها من الغربة الاجتماعية مثلت مدخلاً نحو غربتها النفسية في فترات لاحقة. فرهافة إحساسها الشاعري الذي جُبلت عليه منذ نعومة أظفارها كان واحدا من أسباب عزلتها، وقد تولدت عندها فكرة الانعزال اضافة لذلك نتيجة عوامل متعددة قادت النقاد الى توجيه الاتهام لها بالإلحاد والتشكيك، ولعل طريقة التنشئة التي نشأتها هي ابرز تلك العوامل، فقد نشأت في اسرة ذات محيط ثقافي خاص، وجهها نحو المدرسة الرومانسية ورموزها، وقد أدى توجهها لقراءة التراث الفلسفي وانكبابها عليه الى قربها من الالماني (شوبنهاور) الذي عرف بتشاؤمه، حتى صارت متشائمة أكثر منه [١٥]. فكانت حصيلة ذلك ولادة انسانة شاعرة مميزة عن بنات جنسها، فالمآسي ((التي سببتها الحرب العالمية الثانية))[١٦] والدمار الذي ألحقته بالبشرية ولّد عندها فكرة الانعزال، كما أن عجز الشاعرة عن تغيير ما كان سائدا من تقاليد اجتماعية صارمة ولاسيّما تلك التي تتعلق بحقوق المرأة وحريتها، ترك أثرا سلبيا في موقفها من المجتمع، والوجود. ربما تكون هذه هي العوامل التي تعتقد الباحثة بأنها أسهمت في غربتها الاجتماعية وأجبرتها على الانعزال، وصولاً إلى الغربة النفسية القاسية التي كانت تعاني منها. وربما تكون هذه الغربة هي التي تقف وراء موقف الشاعرة من الليل، والموت، والوجود، والحب، والإيمان، فهذه الموضوعات هي التي وسمتْ اغترابها في رحلتها الشعرية الأولى واستمرت بعد ذلك إلى حين[١٧]، وقد تغير موقف نازك الملائكة في قصائدها فنجدها تتنقل من موقف تتساءل فيه تساؤلا مبطّنا بالإنكار إلى موقف ديني معيّن، وفي كلا الموقفين يبرز تمرّدها و رفضهُا،الذي فجّر مجموعة تساؤلات أفضت إلى أبياتها الشعرية هذه :

ماذا وراء الحياة مـــــــــاذا ؟
أي غموض وأيُّ ســـــرٌ ؟
وفيم جئنا ؟ وكيف نمضي ؟
يا زورقي بل لأيِّ بحر ؟[١٨]

تحاول الشاعرة أن تنتج نصها الشعري متوافقا مع الدلالات الفكرية التي تكشف عن الرؤية المعاصرة

القائمة على رفض الوضع السائد والشعور بالضياع، فهي تجهل مصيرها في هذه الحياة فتحاول الإجابة عن الاسئلة المتعلقة بأسرار الحياة وطبيعة الوجود.

تقول في قصيدة (صراع) :

وأضحك من كل ما في الوجود
وفي ضحكي مرح ساخر
فقلبي سخرية واحتقار
يثيرهما العالم العاثر
أحدق من قمتي في الثرى
فيضحكني دوده الناخر
وأضحك ضحكة رب كئيب
تمرد مخلوقه الكافر[١٩]

تعد هذه القصيدة محاكاة عصرية للواقع الذي تعيشه وتصوير لما فيه من تعقيدات تكتنف الحياة الروحية والفكرية، والذات المعاصرة فتواجه الواقع المعقد(فيضحكني دوده الناخر، وأضحك ضحكة رب كئيب) بتقمص دور الرب الكئيب الذي يضحك من تمرد مخلوقاته.ففي قصيدتها سخرية واضحة من كل شيء، سخرية مشبعة بالتفجع والألم.

وفي قصيدة (جحود) تنجح نازك في رسم صورة الإنسان، الذي يعيش الواقع، عبر رؤية فيها كثير من اليأس القاتم، وخيبات الأمل، لتبدو هذه القصيدة مرآة عاكسة لنفسية الشخصية العربية التي تواجه المحن، واليأس الذي يدفعها إلى الجحود النكران والرفض:

إن يك الجسم من ترابٍ حقير
فأنا إثم... أنا لست أثير
إن يك العقل يمقت الانفجار
فأنا حل منه...يا للعار!
إن يك الإيمان هو هذا الجمود
فأنا نكران أنا كلي جحود[٢٠]

وعلى ذلك فنحن أمام شخصية تميزت بالتمرد، يمكن وصفها بأنها رافضة لكل شيء بكل ما تحمل كلمة رفض من معنى، فهي شخصية عارفة لمصيرها، ولا تفكر بالتراجع (فأنا إثم، فأنا نكران،أنا كلي جحود) فهو رفض لإنسان واع، يدرك حقيقة الأمر، ولكنه اتخذ من هذا التمرد طريقة لرفض الواقع الذي يعيش فيه، ورفض كل المسلمات التي صارت ثقلا ينوء به، وإن تكرارها للفظة (أنا) هو إصرار على أن تصرخ بصوت عال من غير خوف أو وجل.

كما ان الشاعرة حاولت في قصيدة أخرى أن توظف أسلوباً قائما على الثنائية المتضادة كي تعلن عن طريقها رفضها لكل ما هو سائد حتى لو كان طقوسا عبادية، لكنها في نظرها لا تحمل قدسية في ذاتها، فالصلاة هي فعل عبادي، الا أن الشاعرة جعلت من ألفاظها خطيئة ترتجف الشفاه بها:

كرهت ارتعاش الشفاه
برجع الصلاة
ففي كل لفظ خطيئة
تجيش بها رغبات دنيئة [٢١]

أما قصيدتها المسماة (أول الطريق) فقد استمرت الشاعرة بالثورة والرفض لكل شيء يؤذي الإنسان أو الأرض، واصفة المارد الذي يطوف الأرض ليبث الأذى في أرجائها، والإله غافلا عن ذلك وكأن عيناه قد غفت فلم يعد يرى الدمار الحاصل من ذلك المارد، وكأن الشاعرة تحمل الإله كل المسؤولية عمّا يجري، ولربما أرادت الشاعرة بهذا الوصف ان ترمز للسلطة الظالمة التي تسحق الناس دون أدنى رحمة :

أرى مارداً من أساي الممزق يطوي الفضاء
ينقل أقدامه السود بين عيون السنا

ويطفئها، عدت أخشى أذاه على نجمنا
فعين الإله
غفت عن أذاه[٢٢]

قراءة سريعة لأسلوب النص كفيلة بإيضاح مقدار الجرأة في تعاملها مع الإله (فعين الإله،غفت عن أذاه)، لكن أن تمعنا فيها قليلا فلربما نجد أن الحقيقة قد لا تكون غير ذلك؛ لأن الإله هنا قد يكون رمزا للقهر السياسي أو الاجتماعي الذي خيم على روحها فأرادت توظيف الرمز ليحيلنا إلى أعلى مراتب السلطة ومصدر القدرة المتمثلة بالإله.

ونجد الشاعرة قد وظفت قصص القران الكريم وتحديدا قصة نبي الله آدم في قصيدتها (أغنية للإنسان) التي كتبتها في عام (١٩٥٠) فجعلت رموز القصيدة مرتبطة بالحدث (آدم، حواء، الثعبان) وهؤلاء هم أبطال ملحمة الخلق الأولى، فاتكاء النص على حقل دلالي ((ينمو حتى يشكل في مجمله وعبر علاقاته المتشابكة كلاً فعالاً يهدف إلى خلق صورة الرمز الجديد بعد أن انتقلت تلك الرموز من صورتها الدينية إلى صورتها الشعرية الجديدة))[٢٣].

أي ذنب جناه آدم حتى
نتلقى العقاب نحن جميعا؟
أي ذنب جنته حواء؟ ماذا
عرفت من ثعبانها المشؤوم
ليتها لم تمس دحوتها قط
ولم تصب للجنى المسموم[٢٤]

تحاول الشاعرة هنا أن تفيد من القصة القرآنية التي تروي قضية نبي الله آدم حين كان في الجنة، ولكنها ضمنتها رؤى وأفكارا خاصة تعكس وجهة نظرها في هذه الاحداث، في نسق سردي متتابع، يعكس التجربة الخاصة للشاعرة، ويسلط الضوء على جوانبها النفسية، فمن وجهة نظرها فإن كل الماسي التي وقعت على الناس جميعا يتحمل مسؤوليتها ادم وحواء؛ لأنهما قد جرا العقاب على بني البشر بفعلتهم (نتلقى العقاب نحن جميعا). وهذا أمر يبدو دخيلا على أفكار الشاعرة، إذ لا يعقل إن شاعرة مثل نازك الملائكة، التي تتمتع بثقافة عالية، تلجأ إلى مثل هذا الرمز الديني، لتحمله مسؤولية كل ما يحصل. فقد يكون توظيفها هذا هو جزء من منهج تعويضي استعانت به الشاعرة للرد على الاغتراب، فالعودة إلى الماضي واستحضار الطفولة، وبناء المدن في الخيال والحلم، واستلهام التراث هي من الامور التي تفرد بها شعراء قصيدة التفعيلة[٢٥].وبهذا يمكن ان نقول ان هناك عوامل كثيرة تآزرت لتدفع بنازك نحو الشك.

المبحث الثاني: مرحلة اليقين

بعد خروج نازك من سوداويتها، وتشاؤمها، بدأت ترى الحياة برؤية مشرقة، فهجرت افكار الإلحاد وركنت إلى اليقين بالله تعالى يقينا كاملاً وذلك في عام ١٩٥٧[٢٦]. وأن تحديدنا هنا سنة اليقين أمر يجانب الصحة؛ لأنها كانت تتقلب بين الشك واليقين قبل هذا الوقت، لتصل في نهاية المطاف إلى اليقين الكامل الذي بدا أكثر وضوحا في تلك السنة، بعدها بدأت توجهاتها تتجه نحو النص المقدس أو الشخصية المقدسة توجها واضحا بطريقة تدل على اختلاف المسار الفكري للشاعرة. فبعد أن كان المقدس الديني يمثل لها عائقا ومصدرا للتشاؤم، صار الآن يمثل مرفأ اليقين الذي تلجأ إليه.

كما وظفت الشاعرة أيضا الأبعاد الفكرية للمعطيات الصوفية في نصوصها الشعرية، وتجدر الإشارة هنا على أن ((المذهب التصوفي، من حيث الشعور

والممارسة، غير الاعتقاد الديني القائم على التوحيد والإيمان بالله ورسله وكتبه، أي القائم على عبادة الله وتقواه وتنزيهه))[٢٧].

حاولت في قصيدتها (زنابق صوفية للرسول) أن تجعل من شخصية الرسول محمد(صلى الله عليه وآله) رمزاً للحب الصوفي، فصرحت في بداية قصيدتها بأنها ((قصيدة حب للرسول الكريم في صيغة معاصرة))[٢٨]، فتقول:

أحمد من ضوئه سقاني
أحمد كان البخور والشمع في رمضاني
أحمد كان انبلاج الفجر، وكان صوفية الأغاني
وأحمد في مروج تسبيحة رماني[٢٩].

كان اسم الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) محورا للقصيدة، الذي تدور حوله بقية المضامين والصور، فنراه يتكرر في القصيدة (٤١) مرة، فنراها تترنم بهذا الاسم الذي يرمز الى شخصية استقت الشاعرة من ضوئها، فكان انبلاجا للفجر الذي يعلن عن نهاية الظلمة التي غلفت روح الشاعرة حقبة من الزمن، فقد مثل حلقة الوصل التي ربطت بين السماء والأرض؛ ذلك لأنَّ((الحقيقة المحمدية... تمثل وسيطاً روحياً بين الله والعالم من جهة، وبين الله والإنسان من جهة أخرى))[٣٠] فالشاعرة لم تكن بعيدة عن الجو الديني ولم تكن جاهلة بحقيقة النبي محمد(صلى الله عليه وآله) ولكن هذه المعرفة وهذا التغني باسم النبي حدث بعد جهاد للنفس، فجاء يقينها قائما على العلم بحقيقة الأشياء، ومعرفة نابعة من روح اجتهدت بالبحث عن الحقيقة حتى أدركتها.

وقولها :

يا رمضاني، يا سكرة الوجود في صلاتي
يا وردتي، يا حصاد عمري، يا كل ماض، يا كل آتي

تتجلى المعاني الدينية بوضوح تام، يكشف عن رسوخها وتمكنها من الوصول إلى أرقى درجاتها، عن طريق هيمنة ضمير المتكلم، فكل شيء عائد إلى الشاعرة (رمضاني، صلاتي،وردتي،حصاد عمري)، فحديثها عن الأشياء جاء نابعا من شعور طاغ بداخلها، تسلل إلى روحها، فتداخلت مع المعطيـــات الدينية الى حد الاندماج، ونلحظ مقدار الانقلاب الحاصل في نفس نازك الملائكة، عن طريق تحليلنا لقولها في قصيدتها التي ذكرناها في بداية هذا البحث التي تحدثت فيها عن الصلاة فقالت: (كرهت ارتعاش الشفاه،برجع الصلاة، ففي كل لفظ خطيئة) فبعد أن كانت تعد الفاظ الصلاة خطيئة صارت تتغنى بالرسول وتقول: (يا سكرة الوجود في صلاتي).

و قولهـــا في قصيدة (إن شاء الله)[٣١]

هل يسخو العطر وينهمر ؟
إن شاء الله
إن شاء الله
ومتى يسري نسغ السكر
في الرمان الحامض ؟ والفجر متى يظهر ؟
إن شاء الله ؟

هذا هو اعتراف بأن الأشياء مقيدة بالمشيئة الإلهية عبر تكرارها لعبارة (إن شاء الله) وهذا الأمر يتعارض مع اعتقادها الأول الذي كان قائما على الجحود والنكران والرفض، إن تغير الاحساس الذي ترجمته لنا بحديثها عن وجود الخالق الذي لا تتحقق الأشياء إلا بمشيئته، هو الدليل على وصول الإيمان واليقين إلى روح الشاعرة الأمر الذي دفعها للاعتراف بوجود الخالق المقتدر الذي يحرك الأشياء ويقدرها بقدر، فالشاعرة مؤمنة بذلك فنراها تترنم بتكرار(إن شاء الله). أما في قصيدتها (الماء والبارود)[٣٢] فتكرر

عبارة (الله اكبر) بنحو متوال يحفز إحساس الارتباط بالطقوس الدينيـة التي تقوم على التضرع والدعاء، لإكساب المقطع طقساً دينياً مرتبطا بالآذان والدعاء والمعجزة، ولعلها أرادت من ذلك أن ترتبط ارتباطا قويا بالطقس العبادي:

الله اكبر

الله اكبر

هتافة الآذان في سيناء تبحر

من موجها تسيل في الصحراء أنهر

يبدو أن نازك الملائكة قد استمدت نمطية اسلوبها من صيغة الآذان فهو تكرار لا شعوري، يأتي عفوياً فهو نابع من تكوينات البناء النفسي والعقائدي. فتكرارها لعبارة (الله اكبر) بشكل متوال في بداية القصيدة، وجمعها لكل ما يمكنها جمعه من إيحاءات وتوظيفها في السياق الشعري من طقوس و صور في خاتمة القصيدة بشكل متوال مثل (وأغنياتي تظهر، الله اكبر، الله اكبر) يؤكد قضية مهمة في ذات الشاعرة وكأنه تأكيد للمعاني من جهة ولكي تألف الشاعرة وقع هذه المعاني في داخلها من جهة أخرى، حتى أصبحت هذه الألفاظ وكأنها ترنيمة تتغنى بها الشاعرة في الايام المقبلة، وربما تتخذ منها تعويذة تحصنها من العالم السوداوي الذي عاشته ردحا من الزمن.

وهذا التحول الذي تحولته الشاعرة، في مداركها وفي ذاتها قد انعكس أيضا في الكلمة الشعرية، والصورة الفنية، ونلمس ذلك في القصائد ذات النفس الديني فهذه القصائد تكاد تتشابه في اعتمادها اسلوب تكرار اللفظة الدينية وايضا في الأجواء الروحية التي تملأ القصيدة،وكأن الشاعرة اتخذت من القصيدة محرابا للعبادة. ولعل ذلك يعود الى رغبتها الحقيقية لتعميق ذلك الشعور الديني الذي لم يكن قارا في روحها بعد. وربما لأنها تريد الترنم بالألفاظ الدينية ووقعها. وفي قصيدتها (سنابل النار) تقول :

ويا نارُ هدميني

... طهريني، واغسليني

وإلى دائرتي الثالثة العليا انقليني

وإلى الشمس، إلى أعلى الذرى

يمتد جذعي وغصوني

حيث ألقى في المدى وجه مليكي[٣٣].

تدعو الشاعرة النار لتطهيرها وغسل ما علق فيها من شوائب، لتتسامى وتعلو حتى تبلغ الشمس. لأن هذا العلو سيمكنها من أن تلقى وجه مليكها. ويمكن أن نسمي ذلك نزوعا صوفيا لدى الشاعرة، تشكل في حالة حبٍ وشوقٍ(حيث ألقى في المدى وجه مليكي) وفي هذه القصيدة يمكن أن نلاحظ التغير الواضح الذي حصل للشاعرة على مستوى الافكار، والالفاظ والموضوعات أيضا، والذي يقود الى التغير في المستوى العقدي في نهاية المطاف، إن هذا التحول لم يأت من فراغ، وإنما كان نتيجة لعوامل مختلفة يمكن للقارئ أن يدركها عبر مسيرة الشاعرة الحياتية، والشعرية.

بياض النار يبهرني

ويأسرني

فأخرج من كياني ينطوي زمني

وأصعد دونما قيد يقيدني

وأرقى في الأعالي، دونما بدن[٣٤].

نجد الشاعرة قد تيقنت من أن الحب الإلهي هو أساس كل شيء، وأن معراجها الشعري نحو الله، لا يمكن ان يتحقق من دون التطهر التام والكلي، فإذا بها تخرج ذاتها، وترتقى نحو الأعالي حيث طهارة الروح التي أحرقت أدرانها النار، والتي كانت طريقها

الوحيد لتتمكن من العروج إلى هذه الرحاب (بياض النار يبهرني،ويأسرني)، فالحب يعد سبيل الاقتراب الوحيد من الذات الالهية المقدسة والاتحاد بها، والذي كان يسعى اليه جميع المتصوفة والشعراء والفلاسفة، وهو ما حاولت الشاعرة أن تلملم به شتات روحها بعد أن بعثرها الشك فيما سبق (هوى ملكي يلملم كل أشتاتي) فلم تعد تلك الشاعرة الباحثة عن سعادتها في الغاب أو الدير وعند الرهبان، بل صارت تحلق في سماء العشق الالهي :

هوى ملكي يلملم كل أشتاتي
ويرفعني
إلى احلى
إلى أعلى
إلى أعلى وراء مدى لهيب النار
أغيب لا أبصر حتى النار
أخوض في بريق نهار

ويهبط حول وعيي، حول إحساسي بياض ستار[٣٥].

وفي هذه الرحلة في رحاب الحب الإلهي، تدرج تصاعدي، وهو ما أكدته الشاعرة في قولها: (فيرفعني، إلى أحلى، إلى أعلى) فقد تمكنت من امتلاك ناصية الشعور الداخلي العميق، المتمثل بشعور السكينة الذي حل على النفس بعد الوصول الى اليقين، ذلك اليقين الموصل للسعادة التي كانت الشاعرة تبحث عنها باستمرار عند الرهبان وفي الجبال والغابات والريف، لكنها بقيت حلما لا يمكن تحقيقه في ذلك الحين، غير أنها وجدت شعور السعادة حين عرف الإيمان واليقين طريقه إلى روحها فاستسلمت له بكل كيانها. وقد طغى هذا الشعور على قصائدها الى الحد الذي يجعل القارئ لا يمكنه ان يتصور انها قد مرت بمرحلة من الشك والالحاد، وان كنت أعتقد ان كلمة (الالحاد) ليست دقيقة في حالة نازك الملائكة؛ لأنها كانت دائمة البحث عن الطريق الذي يوصلها لليقين، ووصلت في النهاية الى مبتغاها.

ويمكننا ان نثبت النهج الصوفي الذي انتهجته نازك الملائكة من عنوانات نصوصها ليظهر ذلك بوضوح (زنابق صوفية للرسول، سنابل النار، دكان القراءين الصغيرة)، فهي تحاول دائما أن تضع اساس مشروعها الفكري الجديد حتى ((تغير موقفها من هذه المسائل، وانجلت أمامها الأمور بشكل أتاح لها رؤية جديدة للعالم والناس والمثل، وينسحب هذا الحكم على تعاملها مع الطبيعة، فبينما كانت تتلمس الطريق إلى مظاهرها من خلال موقف رومانتيكي عاطفي، وجدناها في هذه المرحلة تسلك دروبها إليها وفق منظور روحي يكاد يقترب في بعض جوانبه من منظور صوفي يرى إن الله يتجلى في كل مظهر من مظاهر الخلق))[٣٦] مما سبق يمكننا ان نقول أن نازك الملائكة أرادت أن تسير في الطريق إلى الله، عبر رؤية صوفية تمكنها من تغيير واقعها والتخلص منه واستبداله بواقع آخر تتسامى فيه الارواح وتسبح في فضاءاته، ولم تتخذ لبلوغ ذلك الطريقة الصوفية القائمة على الانقطاع التام.

فهي تحاول ان تجد لها عالما بديلا عالم اليوتوبيا الذي طالما حلمت به ولم تتمكن من ان تجده على الارض، لتكتشف بعدها ان اليوتوبيا الحقيقية تكمن في الحب الالهي والايمان الصادق به.

النتائج

١- إن الخلل الذي لاحق قصائد نازك الملائكة هو في

التصوير المحدود الذي قصر عن ان يحمل تداعيات وإيحاءات إضافية في أغلب نصوصها الشعرية التي وظفت فيها التراث الديني. وان كان توظيفها لها توظيفا أدبيا ولم يكن لغاية دينية، او تناصا مع النص الديني.

٢- وقفت الشاعرة في بداياتها موقف الرافض في تعاملها مع النص الديني، فكانت رافضة لكل شيء يتعلق بالمقدس. وكان هذا الرفض بمثابة تقليل من قيمة المقدس وإعلاء لشأن الإنسان، الا انها تحولت بعد ذلك تحولا كاملا، لتصبح المقدسات بكل أشكالها ملجأ وملاذا تلوذ وتحتمي به.

٣-مرت حياة نازك بتحولات على المستويات كافة وموضوع الشك واليقين كان أكثرها وضوحا فقد حصلت لديها تبدلات على مستوى المقدس، فقد كان متنحيا في بداياتها وصار سائدا فيما بعد.

٤- اثر التيارات الفكرية والمذاهب الأدبية بدا واضحا من خلال التشاؤم الذي غلف شعرها ومحاولات الهروب المستمرة من الواقع بحثا عن عالم خيالي مليء بالحب والسلام.

٥ – بعد أن زاد اليقين في داخلها انسحب التشاؤم والسوداوية ليحل محله السلام الروحي الذي طالما بحثت عنه.

٦ – ليس من الصحيح أن نقول كما قال الباحثون ان نازك مرت بمرحلة الحاد بل هي مرحلة يمر بها كل باحث عن الحقيقة فنراه يرفض السائد ويضع الشكوك ليصل إلى يقين وهذا ما مرت به نازك رفض وتشكيك أوصل روحها إلى برد اليقين.

٧ – ديوانها الذي يحمل عنوان (يغير ألوانه البحر) هو الديوان الذي يمثل المتغيرات الفكرية التي مرت بها نازك والعنوان خير دليل على حقيقة الأمر فقد غيرت نازك افكارها القديمة فكان الإيمان بعد الشك. وغير البحر الوانه.

الهوامش

١- ينظر: الفكر الديني القديم، تقي الدباغ، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، العراق، ١٩٩٢م :٩.

٢- ينظر: المصدر نفسه : ٩.

٣- الإنسان والدين، عبد الحميد محسن، بحث ضمن كتاب الإنسان الموسم الثقافي لدائرة العلم الإنسانية، منشورات المجمع العلمي، ٢٠٠٠م : ٩٢-٩٣.

٤- فلاسفة المشرق والمغرب، غالب مصطفى، منشورات حمد، ط١، بيروت، ١٩٦٨ م : ١٤٧.

٥- الصوت وأبعاده، د. مشهور فوّاز، مجلة (عمّان)، عمّان، العدد ٥٢، ١٩٩٩م : ٣٠.

٦- ينظر: الأسطورة في الشعر العربي الحديث: ١٤٥.

٧- ينظر: الأسطورة في الشعر العربي الحديث: ١٤٥.

٨- ينظر : مجلة مؤتة، م١٠/ع١٩٩٥/٢، توظيف التناص في «متاهة الإعراب في ناطحات السراب» المؤنس الرزاز، محمد علي الشوابكة : ١٦-١٩.

٩- التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والإبداع في الشعر العربي الحديث : ٥٤ - ٥٥

١٠- ينظر: في الرؤيا الشعرية المعاصرة، احمد نصيف الجنابي: ١٦.

١١- ينظر: ديوان نازك الملائكة: ٢/٢١-٢٤

١٢- الشعر والشعراء في العراق، احمد ابو سعد: ١٩٢.

١٣- ينظر: ديوان نازك الملائكة: ٢/٢١-٢٤، ونازك الملائكة- دراسة ومختارات: ٧٨.

١٤- يُنظر : لمحات من سيرة حياتي وثقافتي، نازك الملائكة، اوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة، ص١٩ وينظر الادب العربي الحديث : ٢٦٦.

١٥- ينظر : مقدمة ديوان مأساة الحياة وأغنية للإنسان، ١/٦-٧.

١٦- ينظر: مقدمة ديوان مأساة الحياة وأغنية للإنسان، ١/٧.

١٧- الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد)- دراسة، محمد راضي جعفر،من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٩م:١٠

١٨- ديوان عاشقة الليل، ١: ٥٦٢.

١٩- ديوان نازك الملائكة: مج٢ : ٥٢.

٢٠- ديوان نازك الملائكة،مج٢،ص٩٢.

٢١- ديوان نازك الملائكة: مج٢: ١٢٢.

٢٢- ديوان نازك الملائكة : مج٢ : ٢٢٨.

٢٣- الرمز الديني في الشعر العراقي المعاصر : ٥١٤.

٢٤- ديوان نازك الملائكة،مج١:٢٦٠ إلى -٢٧١.

٢٥- ينظر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد)-d

٢٦- ظاهرة التفاؤل في شعر نازك الملائكة، سالم الحمداني: ٣٢٧.

٢٧- فصول في نقد الشعر العربي الحديث، د. ياسين الأيوبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ١٩٨٩: ٣٠٢.

٢٨- يغير ألوانه البحر، نازك الملائكة : ٥٢.
٢٩- ديوان نازك الملائكة: ٣٩٥/٢.
٣٠- فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، د. نصر حامد أبو زيد : ٨٧.
٣١- ذكرت نازك في الديوان في مقدمة هذه القصيدة ان الطائرات الاسرائيلية قصفت مواقعا للجيش المصري وكان الوقت عند اذان المغرب وكان الجنود صيام يريدون ان يفطروا حين بدأ القصف. ديوان نازك الملائكة: مج ٢/ ٥١١- ٥١٢.
٣٢- ديوان نازك الملائكة : ٣٧٤/٢.
٣٣- يغير الوانه البحر : ١٣٤.
٣٤- م. ن : ١٣٨.
٣٥- يغير ألوانه البحر : ١٣٩-١٤٠.
٣٦- ظاهرة التفاؤل في شعر نازك (تذكاري) : ٣٠٢-٣٠٣.

المصادر والمراجع

١- الفكر الديني القديم، تقي الدباغ، دار الشؤون العامة، ط١، العراق، ١٩٩٢م.

٢- الإنسان والدين، عبد الحميد محسن، بحث ضمن كتاب الإنسان الموسم الثقافي لدائرة العلم الإنسانية، منشورات المجمع العلمي، ٢٠٠٠م.

٣- فلاسفة المشرق والمغرب، غالب مصطفى، منشورات حمد، ط١، بيروت، ١٩٦٨ م.

٤- الصوت وأبعاده، د. مشهور فوّاز، مجلة (عمّان)، عمّان، العدد ٥٢، ١٩٩٩م.

٥- الأسطورة في الشعر العربي الحديث.

٦- مجلة مؤتة، م١٠/ع٢/١٩٩٥، توظيف التناص في «متاهة الإعراب في ناطحات السراب» المؤنس الرزاز، محمد علي الشوابكة.

٧- السكون المتحرك: علوي الهاشمي منشورات اتحاد كتاب وأدباءالإمارات،ج٣،ط١، ١٩٩٥م.

٨- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين اسماعيل..

٩- التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والإبداع في الشعر العربي الحديث

١٠- في الرؤيا الشعرية المعاصرة، احمد نصيف الجنابي.

١١- الشعر والشعراء في العراق، احمد ابو سعد:١٩٢.

١٢- يُنظر : لمحات من سيرة حياتي وثقافتي، نازك الملائكة، اوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة

١٣- الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد)- دراسة، محمد راضي جعفر،من منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٩م.

١٤- الرمز الديني في الشعر العراقي المعاصر.

١٥- ظاهرة التفاؤل في شعر نازك الملائكة، سالم الحمداني: ٣٢٧.

١٦- فصول في نقد الشعر العربي الحديث، د. ياسين الأيوبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ١٩٨٩.

١٧- فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، د. نصر حامد أبو زيد

١٨- ظاهرة التفاؤل في شعر نازك (تذكاري) : ٣٠٢-٣٠٣.

١٩- الادب العربي الحديث – دراسة في شعره ونثره، د. فائق مصطفى و د. سالم الحمداني، مطبعة جامعة الموصل، د.ط، ١٩٨٧.

٢٠- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط٢، ١٩٦٥.

٢١- يغير الوانه البحر، نازك الملائكة، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، بغداد، ط١، ١٩٧٧.